# البكاء الثالث

بقلم: عبد العزيز بن محمد عثمان

ركاز ®

لتعزيز الأخلاق

قصة للفتيان من إصدارات حملة ركاز الإعلامية الرابعة عشرة

# البكاء الثالث

**ماجد:**

صفعتُ الباب خلفي في عنف ثم انطلقت نحو سريري لا ألوي على شيء. لقد أخطأت. يبدو أنني فعلاً أخطأت وإن صعب عليّ الاعتراف بذلك. سمحت للدمعة الأولى أن تشق طريقها على خدّي. طال حبسي لها. لم أكن لأطلقها أمام أيٍّ منهم فأضحّي بكرامتي. أخذت أتحسس مواطن الألم في وجهي. كانت معركة مع ندٍّ متوسط القوّة. بيد أن ما يحزّ في صدري من ألم يجاوز كثيرًا ما أثارته ضرباته من ألم حسّي.

يوم اثنين. ككلّ أيام الاثنين. دوامٌ جامعيّ طويل. محاضراتٌ مُملّة مكرورة. ملل! ملل! ملل! لست أدري لماذا يطلبون منّا حضور مَحاضرات لأولئك الديناصورات البشرية الذين - وإن كانوا يحملون العلم في عقولهم - يعجزون عن إيصال المفاهيم لنا، أو لي أنا على الأقل. في وقت الغداء اقترب منّي مازن، ابتسامته الغبيّة السمجة، حماسه المصطنع، ولسانه الذي لا يكفّ عن الثرثرة. هتف بي متحمسًا:

- السلام عليكم! أهلاً بالجميل!

رددت محاولاً مبادلته حماسه:

- وعليكم السلام! أهلاً مازن.

- هل تنوي حضور المحاضرة التي يقيمها اليوم نادي روّاد الأعمال؟

- لا، في الحقيقة...

- ها ها ها! لست مهتمًا بريادة الأعمال. لا عليكَ يا صديقي! ليس كل البشر روّاد. ينقسم الناس إلى قسمين: قادة وأتباع. عن نفسي بدأت فعلاً مشروعي الريادي. هل تريد أن تعرف المزيد عنه؟ بالتأكيد! أقوم حاليًا على إنتاج أقلام بوسعها أن تفعل كل شيء! حرفيًّا كل شيء! هل تودّ أن أحدثك عنها؟

لست مهتمًا على الإطلاق. أحلم باللحظة التي تتبخر فيها من أمامي. أجبت باقتضاب:

- في الحقيقة، أنا لس..

أنا لا أفضّل مشاركة أفكاري. عصرنا هو
عصر الأفكار. سرعان ما تخسر أفكارك إذا جهرت بها، لكني
أثق بك. أنت لست رياديّاً على كل حال. بالرغم من ذلك، ستثيرك
بالتأكيد فكرة اختراعي المدهش. تخيل قلماً يكتب، يسجل صوتك، مزوّد
بكاميرا، يقيس ضغط إطارات السيارات، يهذّب شعرك، ينظّف أسنانك، ويسجّل كلّ
ما تكتب به في شبكة الإنترنت، كما أنه مزوّد بـ...
نهضت من مقعدي وهممت بالمغادرة قبل أن أقاطعه بغضب:
- يكفي يا مازن! يا لك من مغرور جاهل متعجرف! سئمتك! سئمت أخبارك! أكرهك! أكره
أفكارك! أكره قبيلتك كذلك! أكره كل ما تنتمي إليه! ما أنت إلّا مدّع مجنون!
غادرته وكان آخر ما رأيته على وجهه أمارات الصدمة. ما الذي كان يتوقع منّي أن أقوله؟ أنت رائع! كم
أنت مدهش! العالم فقير بدونك! لا يمر أسبوع دون أن يقابلني ويحتقرني ويخبرني بمشاريعه العملاقة
القادمة التي لم أر أيًّا منها يشق طريقه للنور.
دخلت مقهى الجامعة وقد امتلأت دمائي بالغضب. وقفت في الطابور بانتظار دوري. كان أمامي اثنان. أتى
أحدهم ضاحكاً يتحدث في جوّاله ووقف أمامي بجوار الشاب الواقف أمامي. وضعت يدي على كتفه وأنا اهتف
به بغضب:
- لو سمحت، هناك طابور.
أنهى مكالمته سريعًا والتفت لي غاضبًا وهو يقول:
- أنا مع صديقي هنا. تحدث بأدب يا هذا!
رفعت سبابتي بغضب وأنا أهتف به:
- لست بحاجة إلى من يعلمني الأدب. أنت الـ "....." الذي تجاوزني في الطابور.
- احترم نفسك يا وقح، وإلّا جعلتك تنسى اسم أمك.
لم أتمالك نفسي. لم أدرك ما حدث إلّا بعد ما حدث. وجدت يدي تنهال على خده. لم تمض إلّا
ثوان حتى أخذنا نتطاحن في حرب ضروس بسبب خلاف تافه. فرّق بيننا الحضور، وعدت
إلى منزلي سريعاً.

* * * * *

دخلت البيت ملطخاً بدمائي. كان أول من
رآني أختي "دانية". هتفت بي فور رؤيتي وعيناها تشعّان
تساؤلا:
- ما بالك؟ ما الذي جرى؟!
لم أرد. لم أشأ الرد. توجهت صوب غرفتي بينما استمرّت دانية في مطاردتي وهي
تقول كلاماً لم أتبينه. ارتفعت نبرة صوتها فأزعجتني. هالني ما فعلته بعدها. لم أكن
أعلم أنّ جرأتي من الممكن أن تبلغ هذا المدى. التفتّ إليها ودفعتها بعنف. دفعت دانية!
المسكينة دانية! سقطتْ وأَمَارَات الصدمة على وجهها. بدأ نحيبها سريعاً إلّا أنّي كتمته عنّي بدخول
غرفتي وإغلاق الباب خلفي في عنف.
بدأ مسلسل التوبيخ الداخلي. المرّة الأولى في حياتي التي أمد فيها يدي على أحد. كيف سمحت لذلك أن
يحدث؟ كيف سمحت للغضب بأن يتملكني؟ كيف نطقت بما نطقت به؟ لكن أليسوا هم المخطئين؟ ألم
يستفزنّي مازن؟ ما لي ولاختراعاته الغبية؟! ألم تستفزني دانية؟ ما شأنها وشأني؟ وذلك الأحمق المتعجرف
الذي اقتحم الطابور ألا يستحق ما جرى له؟ ألا يستحق أن يُسحق؟!
لا! لا يستحق. الأمر برمته لا يستحق! ما الذي كنت أطمح إليه من ضربه؟ أن يشعر بالألم؟ ثم ماذا؟ من الذي
وهبني هذا الجسد؟! كيف سمحت لمازن أن يستفزني؟ ألا أدرك أن البشر أنواع وأشكال، وأن من الطبيعي جداً
أن يختلفوا؟! مشاعري ملكي. كلماتي ملكي. سلوكي ملكي، ومهما كان ما قاله مازن، فإن ذلك لا يجيز لي
نعته بما نعته به. ما شأن قبيلته؟! إن لم يعجبني مازن فذاك شأني، أما أن يتحول الأمر إلى الإساءة إليه فتلك
خسارة، خسرت فيها نفسي وإيّاه. ودانية! البريئة دانية! ما الذي فعلتْ لتنال ما نالت؟! والمصيبة الأكبر
كانت صوب ذاك الفتى المسكين. كم أنا حقير!
قطع عليّ حبل أفكاري صوت جوّالي. التقطته بقرف. جاءني صوتٌ يزفّ إليّ خبرًا بشعًا. الشاب الذي
اشتبكت معه، يرقد في العناية المركزة. عليّ الحضور فوراً. هذه المرة كنت أنا المصدوم.

* * * * *

## دانية:

- أمّي تحتاجني الآن، إلى اللقاء.

هتفت لي ريم بالكلمات بسرعة. كنت قد اتصلت بها قبل دقائق لأخبرها بالكارثة التي حصلت. صوت الباب بالأعلى. إذا فقد خرج من صومعته. توقعته أن يختفي لساعات، بيد أنّه لم يُطل. لم أكن أدري ما ينبغي عليّ أن أشعر به تجاهه. أشعر بالألم، بالصدمة، وبقليل من الشفقة. لكن ما إن رأيته حتى زال كل شيء وامتلأ قلبي شفقةً عليه. كان وجهه مبللاً بالدموع! ماجد يبكي! وقفتُ وصوّبت إليه نظرة حمّلتها ما استطعت من تعاطف. قطعتُ المسافة بيني وبينه في سرعة. طوّقني بذراعيه. احتضنته بحنان. تركني وأمسك يدي وبدا صوته متحشرجًا وهو يحاول الكلام:

- آ.. آسـ..

أشرت إليه ليصمت. أومأت له برأسي. لا بأس. لم يحدث شيء. كلنا نخطئ، لكن الذي نفعله بعد أن نخطئ هو ما نتباين فيه. من المؤكد أن ماجد يشعر بخطئه الآن، ومجرد محاولته الاعتذار تكفيني. انصرف بخفة، فلحقته على عجل. يجب أن أعرف ما الذي يجري. ركبت سيارته دون أن يدعوني. انطلقت بنا السيارة بهدوء تشق طريقها بسرعة. حاولت أن أفتتح الحوار.

- ماجد...

التفت لي متسائلا. أكملت:

- ما الذي حدث؟

تنهد بأسى. هذا ليس ماجد الذي أعرفه. قال والألم يخنقه:

- عراك. عراك صغير. أنا الآن متوجه للمستشفى. يبدو أن الرجل أصيب إصابة بالغة.

لم يصدمني ذلك. توقعته رغم أني تمنيت ألا يكون. لم أشاهد ماجدًا في حال كهذه على الإطلاق. خيّم علينا الصمت طوال الطريق. لكن دهشتي العظمى، ومصيبتي الكبرى كانت يوم وصلنا المستشفى. ريم! ما الذي تفعله هنا يا ترى؟! لم تمض سوى دقائق معدودات يوم اكتشفت الحقيقة الفاجعة. ريم، صديقتي العزيزة، والتي يعتصرها الألم هي وأمها التي تقف بجوارها، هي أخت ذلك الفتى الفاقد للوعي، المسجّى على فراشه، والذي تسبب أخي في إصاباته البليغة تلك.

* * * * *

وقفنا مقابل بعضنا البعض بينما انسلّ ماجد
متوجهًا إلى سرير المريض. أخذنا ننظر إلى بعضنا
عاجزين عن فعل أي شيء. ما الذي ينبغي عليّ قوله؟ لست أدري! ما
الذي ينبغي عليّ الشعور به؟ لست أدري! كانت ريم أذكى منّي. كعادتها،
تجيد التواصل الإنساني لأبعد المستويات. احتضنتني بعنف. هتفت في أذني برقة
ودموعها تبلل صوتها:
- لا عليك.
لا بدّ أنها تفهم كم يؤلمني ما جرى. لا بد أنها تجيد التحكم في مشاعرها وكلماتها. صدقًا أنا
لست مخطئة. ولا شأن لي بما فعله أخي. لقد حكيت لها قبل قليل كيف دخل ماجد مُغضبًا المنزل،
وكيف قذف بي في فعل لم يسبق له اقترافه. لكن، لكلّ مشكلةٍ حل. لا بدّ أن أساعد أخي. لا بدّ أن أساعد
ريم. لا بدّ أن أساعد نفسي.

* * * * *

## ماجد:

وقفت أمامه والألم يغزو كياني كلّه. منذ قليل، كان هذا الفتى يضحك ملء شدقيه، والآن هو يرقد فاقدًا
الوعي، مثخنا بالجراح، وكلّه بسببي. دسست كفه بين كفيّ وعدت مجددًا لسكب الدمعات. أنا نادم، أشد الندم.
ترى هل ينفع الندم؟!
أحسست بكفها على كتفي. التفتّ إليها. دانية. لا أريد النظر إليها. مجرد النظر في عينيها يجدد في قلبي
المواجع. قالت بهدوء:
- ماجد، كلنا نخطئ، لكننا نتباين فيما نفعله بعد أن نخطئ.
- وما الذي بيدي صنعه؟! لقد انتهى الأمر. لقد ... خسرت.
- دائمًا هناك فرصة.
غادرتْ بهدوء، بينما جلستُ أنا على الكرسي بالجوار، متأملًا فيما حدث. دائمًا هناك فرصة.
تناولت ورقة وقلمًا وطفقت أكتب. كانت رسالة موجهة إلى ياسر، الفتى المسجّى
أمامي. كتبت له فيها كل شيء، حرفيًا كل شيء. وكان "كل شيء" يتكون
من كلمتين: أنا آسف.

* * * * *

غرفة العلاج الطبيعي.
ياسر يتماثل للشفاء بفضل الله، وأنا أحضر معه كلّ جلسة.
كلّ كلّ جلسة. لعلنا غدونا أصدقاء، ولعلّني خلال أسابيع قليلة لم
أعد ذات الشخص الذي كنته. يدّعي ياسر أنه سامحني، وأنّه كان مخطئًا لأنه
أراد الإضرار بي كما أردت الإضرار به، وأنّه أساء لي بكلماته. هه! مهما ادّعى فأنا
المخطئ. لن أسامح نفسي. عزائي الوحيد أنّي غدوت حلو اللسان. مازن! ذاك الذي لم أكن
أطيق كلماته، ولم أزل لا أميل إليها، صرت أستمع إليه بهدوء، وأعلن تشجيعي. في جوّالي ثلاث
تذكيرات كل يوم، ما إن يرّن معلنًا أحدها حتى يتوجب عليّ أن أقول أيّ كلام طيب! أيّ كلام
طيب على الإطلاق!

* * * * *

المبنى رقم 10
الحفل الختامي لأنشطة طلاب الجامعة للسنة الدراسية الحالية. تصرّمت الأيام سراعًا. المسرح يعجّ بمئات
الطلبة. اسمي يتردد في السماعات. اسمي أنا؟! لم أنتبه إلى السبب الذي تمّ ندائي لأجله. نهضت بتثاقل والحيرة
تتملكني. جائزة! هذه جائزة! شهادة تقدير! هذه شهادة تقدير! ما الذي فعلته لأنال كل هذا؟! نظرت في الشهادة
بتساؤل بينما كنت أهبط درجات المسرح. "وسام حسن الخلق". هه! أنا أنال وسامًا في حسن الخلق؟! ياسر؟!
هذا ياسر يقف مبتسمًا وعينيه تعلنان السعادة. احتضنته بعنف، وامتزجت دموعي بدموعه. كان بكائي الثالث
خلال تلك الأسابيع. بكاء الفرح. كلّ الفرح.

ركاز
لتعـزيز الأخـلاق